

مُشْكِلَةُ العُلُومِ الإنسَانِيَّةِ تَقْنِينُهَا وَإِمكَانِيَّةُ حَلِّهَا

الكاتب: يمني الخولي

النَّاشِر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

الصفحات: 147 صفحة



مراجعة: رشا حسين الحاج*

مُقَدِّمَةٌ

شهد القرن العشرين تفجُّراً معرفياً وتطوُّراً نوعياً للعلوم الطَّبِيعِيَّةِ نتيجة ثورة النسبِيَّةِ Relativity والكوانتم Quantum في مجال الفيزياء، أم العلوم الطَّبِيعِيَّةِ. ذلك التَّقَدُّمُ الملحوظ الَّذِي أحرزته تلك العلوم دفع بالباحثين للتَّفَكُّرِ في كَيْفِيَّةِ تطوير العلوم الإنسَانِيَّةِ وتَقَدُّمِهَا في تَفْسِيرِ الظُّوَاهِرِ الإنسَانِيَّةِ والسَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا، كما فعل العقل العلمي التَّجْرِبِيّ مع الظُّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ.

يدعو كتاب «مشكلة العلوم الإنسَانِيَّةِ: تقنينها وإمكانية حلِّها»، لأستاذة فلسفة العلوم ومناهج البحث، الدكتورة يمني طريف الخولي، إلى الاستيعاب الكامل

* ماجستير تاريخ، الجامعة اللبنانيَّة.

لأبعاد الإستمولوجيا العِلْمِيَّة - المنهجِيَّة والمنطقيَّة - لأنها كفيلا بدفع الطاقة التَّقْدُمِيَّة للعلوم الإنسانيَّة، والإسهام في حلِّ مشكلتها.

أقسام الكتاب

يحتوي الكتاب على مُقدِّمة تُشيرُ إلى معنى مصطلح العلوم الإنسانيَّة Human science، وهي الدِّراسات التي تستهدف الإحاطة المنهجِيَّة الوصفِيَّة والتفسيرِيَّة بالظواهر الإنسانيَّة؛ وتذكر بعض الالتباسات التي قد تقع نتيجة عدم مراعاة الشَّائع من اشتقاقات اللغة واستخدام التَّرجمة الحرفِيَّة.

كما يتألَّف الكتاب من سبعة فصول مُترابطة بغية التَّوَصُّل إلى فكرة، مفادها: إنَّه لحلِّ مشكلة العلوم الإنسانيَّة لا بُدَّ من اعتماد الإستمولوجيا المعاصرة المُتبلورة بمبدأ اللَّاحتمِيَّة، ويساوقها منهج الاستنباط، وهي الخاصِّيَّة المنطقيَّة للعلوم الطَّبيعيَّة، والتَّخَلُّص من الإستمولوجيا الكلاسيكيَّة المُتبلورة بمبدأ الحتمِيَّة ويساوقها منهج الاستقراء.

الفصل الأوَّل: العلوم الطَّبيعيَّة منطبق تقدُّمها

يُبيِّن الفصل الأوَّل، وعنوانه: «العلوم الطَّبيعيَّة منطبق تقدُّمها»، أنَّ منطبق العلم التَّجريبِي منطبق «تصحیح ذاتي»، استنادًا إلى قول جاستون باشلار Gaston Bachelard: «العلم لا يخرج من الجهل...؛ لأنَّ الجهل ليس له بُنيَّة؛ بل يخرج من التَّصحیحات المُستمرَّة للبناء المعرفيِّ السَّابق». ويذكر تصوُّرات عدَّة لتقدُّم العلوم الطَّبيعيَّة، منها: تصوُّر الوضعيِّين المناطقة الذين يعتقدون أنَّه لا يُمكن تفسير تقدُّم العُلوم الطَّبيعيَّة ولكن يمكن وصفه. ويشيرُ هذا الفصل إلى أنَّ المرحلة الأولى من العلم هي المرحلة الوصفِيَّة يليها المرحلة التفسيرِيَّة والتَّنبؤ، وأنَّ درجة تقدُّم العلم يمكن أن تُقاس بمدى توغُّله في المرحلة التفسيرِيَّة.

إنَّ النَّظريَّة الكومِيَّة، التي طرحها ماكس بلانك، والنَّظريَّة النَّسبيَّة، التي أعلنها ألبرت أينشتين، قلبتا بالنَّسبة إلى المؤلِّفة مُسلِّمات الفيزياء الكلاسيكيَّة رأسًا على عقب، فحلَّ التَّرابط الإحصائيِّ بين الأحداث محلَّ التَّرابط العلميِّ واللاحتمِيَّة محلَّ الحتمِيَّة. وعلى الرِّغم من أنَّ النَّظريَّة الفيزيائيَّة كانت محض علاقات فيزيائيَّة ولكنها قضت بصورة حادَّة على المبادئ الفلسفيَّة التي يُمثلها كانط، مثلًا؛ أي أنَّها أثرت على المبادئ الإستمولوجية، ولم تقتصر على تغيير مفاهيم

فيزيائية. كما وأظهرت النسبوية Relativism أن كل تقدم علمي يحزره الإنسان، ومهما ثبت نجاحه، هو فقط أعلى نسبيًا من المرحلة السابقة. وعليه، سوف تحمل المرحلة التالية معها إمكانية التقدم بدرجة أعلى.

الفصل الثاني: العلوم الإنسانية منطلق تخلفها النسبي

يُشير الفصل الثاني، وعنوانه: «العلوم الإنسانية منطلق تخلفها النسبي»، إلى أنه لم يتكوّن بعد نسق كامل من القوانين التفسيرية في أي مجال من مجالات العلوم الإنسانية، يماثل من حيث القوة المنطقية أنساق القوانين التفسيرية في العلوم الطبيعية. ويلقي الضوء على رأي فيلهلم دلتاي¹ Wilhelm Dilthey الذي وصف المشكلة وبين أن العلوم الإنسانية شديدة التباين - منهاجًا وتطبيقًا - عن العلوم الطبيعية، كونها متغيرة وفقًا للأنماط والإيقاعات التاريخية للسياقات الاجتماعية والثقافية. ويذكر أنه ظهرت تيارات فكرية لتخطي الأزمة، من قبيل فينومينولوجيا أدmond هوسرل Edmund Husserl، التي عدت أن تلك الهوة بين العلوم الطبيعية والإنسانية هي من صميم طبائع الأمور وليست بمشكلة؛ أي قامت بمواجهة المشكلة عن طريق نفيها.

تبيّن أن أصحاب الدراسات الإنسانية في القرن الثامن عشر، كان يُنازعهم الحلم بالظفر بمنزلة تساوي منزلة الفيزياء بمناهجها الرياضية وتطبيقاتها القوية، مستشهدة بتأكيد العقلانيين من أمثال: هولباخ Baron d'Holbach وكوندورسيه Marquis de Condorcet إمكانية الرياضيات الاجتماعية والفيزياء الاجتماعية بذات دقة أصولها وجدواها في العلوم الطبيعية. كما استعرض هذا الفصل حتمية نيوتن الميكانيكية العلية، التي تعني نظامًا شاملًا لا تخلف فيه ولا مصادفة ولا احتمال، في إطار عصرها؛ وكيف أن القرن التاسع عشر شهد نهضة العلوم الإنسانية نتيجة الاعتماد على أسس الإستمولوجيا الكلاسيكية. إن عامل التخلف النسبي للعلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية، هو: تمسك بعض الباحثين في العلوم الإنسانية بمبدأ الحتمية وبتلك الأسس، على الرغم من اندثارها من العلوم الطبيعية نتيجة ثورة النسبية والكوانتم في القرن العشرين وبروز الإستمولوجيا المعاصرة. ويخلص الفصل إلى تحديد مشكلة العلوم الإنسانية، وهي: عجزها

1- كان له تأثير كبير على الدراسات التاريخية؛ إذ أصبح المؤرّخون يهتمون بتحقيق السمة العلمية الدقيقة في أبحاثهم.

عن بلوغ المرحلة التفسيرية المُقتدرة وافتقارها إلى الخصائص المنطقية الدقيقة، مُنوهاً أنه بينما تتكامل التفسيرات في العلوم الطبيعية، نجدتها في العلوم الإنسانية تتنازع وتتناقض، وقد تبلغ حد التصادم الصريح.

الفصل الثالث: منطق مشكلة العلوم الإنسانية

يشرح الفصل الثالث وعنوانه «منطق مشكلة العلوم الإنسانية»، أن تفاعل طبيعة العلاقة بين الباحث وموضوع بحثه مع طبيعة الظاهرة الإنسانية يُؤدّي إلى افتقار العلوم الإنسانية للتقنين المنطقي، لا سيما في المرحلة التفسيرية. إن طبيعة العلاقة بين الباحث وموضوع بحثه تتعلق بمنطق العلم من حيث تحديد البنية المنطقية وإحكامها لصوغ الفروض؛ فالباحث جزء من الظاهرة المدروسة، ويشعر تجاهها بميول تفرضها الأيديولوجية السياسية والاجتماعية، والبيئة الثقافية، والبيئة الحضارية التي ينتمي إليها، فتؤدّي به إلى إضفاء الإسقاطات التقويمية على مادّة بحثه. كما أن طبيعة الظاهرة الإنسانية تتعلّق بمنهج العلم؛ أي أصوليات البحث التجريبي في تعامله مع الظاهرة، آخذين في الحسبان أن الظواهر الإنسانية أكثر تعقيداً من الظواهر الطبيعية. إن الخاصية المنطقية المعاصرة للعلوم الطبيعية وتساوقها المنهجي، لديها إمكانية حل مشكلة العلوم الإنسانية.

يُشير هذا الفصل إلى نوعين من المؤثرات الخارجية الدخيلة على العلوم الإنسانية، النوع الأول، هو: المُحدّدات الحضارية والثقافية التي تُعبّر عن وعي العصر؛ أمّا النوع الآخر، فهو: التحيّز الحضاري، أو الثقافي، أو الاجتماعي؛ لافناً إلى أنه لا بُدّ من البحث عن الأسس والمعايير التي تُميّز بمقتضاها بين ما هو علمي وما هو أيديولوجي، وإلى أن الحدود المنطقية للعلوم الإنسانية تتأثر أيضاً بالحس المشترك، أو الفهم الشائع؛ أي موقف الإنسان العادي؛ وإن عمق التداخل بين العلم والحس المشترك يبرز مدى الاحتياج إلى محكّ يفصل بحسب بين ما هو علمي وما هو غير علمي. كما يُشير الفصل في نهايته إلى ضرورة تحديد تخوم واضحة لمشاريع العلوم الإنسانية.

الفصل الرابع: الخاصية المنطقية المميّزة للعلوم الطبيعية

يوضح الفصل الرابع، وعنوانه: «الخاصية المنطقية المميّزة للعلوم الطبيعية»، ما توصل إليه كارل بوبر Karl Popper لتمييز العلم دوناً عن أي نشاط عقلي آخر، وهو معيار القابلية للتكذيب؛ فالخضوع المستمر للاختبار وإمكانية التّفنيد

بالأدلة التجريبية هي الخاصية المنطقية المميزة للقضية العلمية دوناً عن أي قضية تركيبية أخرى. القابلية للتكذيب هي ذاتها القابلية للاختبار، وحين تكذيب النظرية، أو اختبارها نتوصل إما إلى تكذيبها، أو تعزيزها. ويذكر تأكيد بوبر ضرورة قوة الاختبارات حتى لا تعزز النظرية وتعبّر بها بسهولة إلى نسق العلم.

تحسب المؤلفة في هذا الفصل أن النظرية تكون قابلة للتكذيب إذا كانت تُقسم العبارات الأساسية المحتملة إلى فئتين، هما: فئة المكذبات المحتملة للنظرية، وهي التي لا تتسق النظرية معها. والفئة التي تتسق النظرية معها ولا تناقضها. وتؤكد أن لكل نظرية علمية محتوى منطقي، والذي يُحدّد ذلك المحتوى هو مفهوم القابلية للاشتقاق. والنظريات تتنافس في الاقتراب من الصدق، وكل إنجاز علمي هو توصل إلى نظرية جديدة تلافت مواطن كذب في سابقتها، فتغلبت عليها، وأزاحتها من نسق العلم، وحلت محلها.

الفصل الخامس: التساوق المنهجي للخاصية المنطقية

يذكر الفصل الخامس، وعنوانه «التساوق المنهجي للخاصية المنطقية»، أنه في العصور الوسطى التي اتسمت بالدين وانطوت على الحقائق واليقينيات، كان المنهج المهيمن هو القياس الأرسطي، والاستنباط؛ أي الاستدلال الهابط من الكليات إلى الجزئيات، لكن في تلك الحقبة كان الاستنباط يتطرف في التّنظير والعزوف عن التجريب. بعد ذلك، بدا للعقلية الناهضة في العصور الحديثة أنه لا بُدّ من سلك طريق عكسي وهو الاستقراء؛ أي الاستدلال الصاعد من الجزئيات إلى الكليات. والصراع بين جاليليو ومحاكم التفتيش لم يكن صراعاً بين الفكر الحرّ والتعصب، أو بين العلم والدين؛ بل كان صراعاً بين الاستنباط والاستقراء. وبعد أن كانت السلطة المعرفية بيد رجال الكنيسة؛ لأنهم الأقدر على قراءة الكتاب المقدّس، نشط العلماء معتقدين أنفسهم الأقدر على قراءة «كتاب الطبيعة المجيد»، بحسب تعبير جاليليو، المكتوب بلغة الرياضيات. فمكنت الحتمية الميكانيكية منهج الاستقراء من التّربّع على صدر حركة العلم الحديث الكلاسيكي. ولكن بعد الانقلاب على مُسلّمات الفيزياء الكلاسيكية مع الثورة النسبية والكوانتم، أصبح استيعاب الإستمولوجيا المعاصرة يرتهن بالرفض المنطقي لمنهج الاستقراء. ولقد عدّ أن المنهج الاستنباطي هو الذي يطلق العنان لطاقت العلماء الإبداعية لتنتقل فروض جريئة تلائم الطّبائع المُعقّدة لظواهر

العلوم الإنسانية، ومن ثم، تخضع النتائج المُستنبطة منها للاختبار التجريبي، ومنطقيًا لمعيار قابلية التّكذيب.

الفصلين الأخيرين

يُبين الفصلان السادس والسابع، إمكانية حلّ مشكلة العلوم الإنسانية بوساطة الإبستمولوجيا العلميّة المعاصرة، التي يتمثّل منطقتها بالقابليّة للاختبار والتّكذيب التجريبيّ والمنهج الفرضيّ الاستنباطيّ. ومع وجود الأيديولوجيات المختلفة، تحثُّ الكاتبة الماركسيّين والوظيفيّيّن وغيرهم أن يستخرجوا من ذلك الرّغم، أو ذاك ما يصلحُ أن يكون فروضًا علميّة تقبل الامتحان، وتحتكمُ إلى المُشاهدات والتّجارب، وقد تؤيد، أو تفنّد فروض من هذه النّظريّة أو تلك؛ بحيث تنضمّ الفروض النّاجحة، أو التي اجتازت اختبارات القابليّة للتّكذيب وتمّ تعزيزها، إلى شبكة نظريّة أوسع قد تتجاوزُ حدود النّظريّة الأصليّة، وتتخذ طريقًا خاصًا للتّطوّر. تعتقد الكاتبة أن أسلمة العلوم الإنسانية لنّ يحمل - في حدّ ذاته - حلًا لمشكلتها، أو تقنيًا لمرحلتها التّفسيّريّة، ومضاعفة لتقدّمها، إذا ما غَضُضنا النّظر عن شروط العلم؛ أي خصائصه وقواعد منطقته، وأصوليّات منهجه. وتؤكد أنّ المنطق هو القاسم المشترك بين البشر أجمعين مهما تباينت مشاربهم؛ لأنّه قوانين العقل الإنسانيّ من حيث هو إنسانيّ. ومن ثمّ، فإنّ منطق العلم هو قوانين العقل العلميّ من حيث هو علميّ. وفي الالتفات إلى منطق العلم تكمن أهميّة الكتاب.